

الحافظ بن حجر العسقلاني

صورة مشرقة من علماء المسلمين في القرون الوسطى

بقلم الدكتور / السيد أحمد خليل جبل

أستاذ ورئيس قسم التفسير بالكلية

هو شيخ الاسلام في عصره وحامل لواء العلم وخصوصاً علم الحديث والفقه في زمانه ، شيخ الحفاظ وأستاذ العلماء في وقته وهو الى جانب ذلك قاضى القضاة وشيخ الفتوى ، أحمد بن على بن محمد ، شهاب الدين بن حجر العسقلانى الاصل ، ولد بمصر ونشأ بها .

اعتنق مذهب الشافعى فكان أحد مجتهديه . ينسب الى عسقلان لانها بلد آبائه وأجداده .

تقدم في علوم الحديث ونبغ فيها حتى فاق أقرانه . رحل اليه طلاب العلم من كل مكان ينهلون من مورده ويغترفون من بحره ، شغل العلماء والأئمة بعلمه ، وغزارة حفظه ونفاذ بصره ، وقد ملأ الآفاق الاسلامية بمصنفاته القيمة وآثاره الجليلة ، تلك التى كانت ولا تزال منهلاً صافياً من مناهل علوم الدين ، ومصدراً هاماً للباحثين في تاريخ الاسلام .

مولده : ولد الحافظ ابن حجر في الثانى والعشرين من شهر شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، بمنزل على شاطئ النيل بمصر القديمة ، قريب من دير النحاس .

واصل أجداده من عسقلان ، وقد انتقلوا منها حين أشير على صلاح الذين بتخريبها حتى لا تقع في أيدي الصليبيين بعد أن سقطت عكا في يد العدو وكان ذلك في سنة ٥٨٧ هـ .

وأشتهرت أسرة ابن حجر بالعلم والفضل والأدب ، فأبوه كان من زعماء القوم ووجهائهم يتصف بالعلم والمعرفة ، وكان من أبرز المفتين في عهده وقد اشتغل بالتدريس ، وكانت له بالفقه عناية ، وبالأدب اهتمام ، نظم الشعر وأجاده .

وكان من المشهورين من أسرة ابن حجر عم أبيه فخر الدين عثمان ابن محمد على المصرى الشافعى ، ويعرف بابن البزار وبابن حجر ، نشأ بالأسكندرية ، ونبغ في فقه الشافعية فانتقلت إليه رئاسة الافتاء هناك ، وتوفى سنة ٧١٤ هـ (الدرر الكامنة ٢ - ٤٥٠) ، وقد أنجب عثمان هذا ناصر الدين أحمد ، وزين الدين محمداً ، وكان كلا هذين كما في الدرر الكامنة (٤ - ٤٣) من فقهاء الشافعية بثغر الاسكندرية .

نشأته : نشأ الحافظ يتيماً ، اذ ماتت أمه وهو طفل ، وتوفى أبوه بعد ذلك في رجب عام ٧٧٧ هـ وهو حديث السن ، أو كما يقول عن نفسه : « وتركنى ولم أكمل أربع سنين ، وأنا الآن أعقله كالذى يتخيل الشيء ولا يحققه » .

وعاش في كنف أحد أوصيائه زكى الدين الخروبى ، كبير التجار بمصر ولما أراد هذا الوصى أن يحج في سنة ٧٨٤ هـ استصحب معه الحافظ ، فحجا وجاورا ، وكان أحمد قد أكمل في ذلك الحين اثنى عشرة سنة .

وقد دخل أحمد المكتب - كما يقول - حين أكمل خمس سنين ، فقرأ القرآن الكريم على مؤدبه صدر الدين محمد بن محمد السفطى ، وأتمه وهو ابن تسع ، ثم قرأه تجويداً على الشهاب الخيواصى .

وكان يحضر لاقرائه هو والقاضى ناصر الدين محمد ابن وصيه واستاذه العلامة شمس الدين بن القطان ، وكانت قراءته للقرآن الكريم مع رفقائه في مسجد ملاصق لمنزل زكى الدين الخروبى ، وقد من الله على

الحافظ بن حجر بقوة الذكاء وسرعة الفهم ، وتوقد الحفظ ، فكان يحفظ في كل يوم نصف جزء من القرآن الكريم ، كما حفظ سورة مريم في يوم واحد وقد روى أنه حفظ كتاب الحاوي الصغير في أقصر وقت ، فكان يصحح الصفحة منه على شيخه مرة ، ثم يقرؤها مرة ثانية في نفسه تأملا ، ثم يعرضها على أستاذه مرة ثالثة حفظاً .

ويذكر تلميذه البقاعي طريقته في مطالعته فيقول : « كان اذا مر بشيء في مطالعته ، فان كان له غرض في حفظه ، ألقى اليه باله ، وصرف نحوه همته والا فلا » .

ونظر ابن حجر وهو صبي بالمكتب في كتب التواريخ ، وما زال يوالى النظر فيها حتى مهر في ذلك ، وقد أعانه هذا على معرفة الرجال ، وأحوال الرواه ، فصنف هذه الكتب القيمة في تراجم الرجال « كالدُرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » ، « تراجم رجال المائة التاسعة » ، ورفع الأمر عن قضاة مصر « وقد ألف سنة ٨٢٧ هـ ، وجعله من تراجم من ولى قضاة مصر « والاصابة في تمييز الصحابة » ، « وتهذيب التهذيب » ، « وأنباء الغمر بأبناء العمر » وهو جزءان كبيران مخطوطان ، جعله تاريخاً لحوادث عصره ومن عاصرهم من الملوك والأمراء والعلماء والأقران ، وبعد حلقة من تاريخ مصر في القرنين الثامن والتاسع ، بدأه بأحداث سنة ٧٧٣ هـ وهى السنة التى ولد فيها وانتهى فيه الى عام ٨٥٠ هـ .

ثم صادف أن زكى الدين الخروبى قد تجهز للحج وعزم عليه في سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، فأخذ معه الصبى الى الحجاز . وفي مكة سمع ابن حجر صحيح البخارى من عفيف الدين النشاورى وهو شيخ الحديث هناك ، وهو أول من تتلمذ عليه ابن حجر في علم الحديث ، وكان سماعه بقراءة القاضى شمس الدين أحمد بن محمد الدمشقى المعروف بالسلوى

وهو أستاذ يقول عنه ابن حجر في الأنباء (٢ - ٢٥) : « كان صوته حسناً وقراءته جيدة ، ولى قضاء بعلبك سنة ٧٨٠ هـ ودرس وأفتى ٠٠ واجتمعت به بعد ذلك وكان بيننا مودة » .

ثم رجع ابن حجر مع زكى الدين الخروبى الى مصر فى سنة ٧٨٦ هـ فقرأ على الصدر بن عبد الناصر شيئاً من العلم فى تلك السنة ، كما سمع صحيح البخارى من نجم الدين بن رزين ، وصلاح الدين الزفتاوى ، وأبى الفرج بن الشحنة ، فلما بلغ الخامسة عشره لازم أحد المشايخ وهو الشمس ابن القطان ، فحضر دروسه فى الفقه والعربية والحساب ، ثم اختلف الى بعض المشايخ وأخذ عنه ، وقد ضعف عزمه عن الاشتغال بالعلم فترة ، ثم صح منه العزم مرة أخرى وقد جاوز السابعة عشره من عمره ، فاقبل على العلوم ، وطلب ما غلب على العادة طلبه فى ذلك الوقت ، من الفقه والحديث والتفسير وغير ذلك .

وفى سنة ٧٩٢ هـ قد عنى بالأدب واهتم به ، واشتغل بفنونه ، وكان رضى الله عنه من الشعراء المجيدين والأدباء البارزين وأبوه من قبله كان كذلك ، وكانت له قصائد فى غاية الجودة وله مع أدبائه مواقف تدل على رسوخ قدمه فى الأدب بنوعيه يتجلى ذلك فى مكاتباته ورسائله التى كان يرد بها على مدح أصحابه له ، ويبعثون اليه بالالغاز والاحاجى فيبعث اليهم جوابه عليها ، وأكثر من ذلك أنهم كانوا يستفتونه فيما اشكل عليهم بالشعر حيناً وبالنثر حيناً فيجيبهم شعراً ونثراً .

وحبب الله اليه الحديث فرغب فيه وأقبل عليه ، ووهب حياته للاشتغال به وأكثر الرحلة فى طلبه ، واذا كان قد قرأ أو سمع شيئاً من الحديث وهو صغير على بعض علماء عصره ، فانه لم يجد فى طلبه الا بعد سنة ٧٩٦ هـ ، ولما عزم على التحصيل وأقبل على الدرس وفق كل التوفيق وهدى الى

سواء السبيل ، وبدأ بعد أن وقف يطوف على الشيوخ ، ويترحل الى المدن
فاكثر من المسموع ، ونقل من كبار الكتب الشئ الكثير ، وقد اتصل باستاذة
الحافظ زين الدين العراقي ، وكان الحافظ العراقي قد اشتهر بالفقه ،
وأصبح المشار اليه في هذا الشأن ، وعليه تخرج غالب أهل عصره . فلزمه
ابن حجر عشرة أعوام كاملة منذ سنة ٧٩٦ هـ وأثناء هذه المدة قرأ عليه
ألفيته التي نظمها في علوم الحديث لابن الصلاح ، وشرحها له بحثاً ، وانتهى
من ذلك في رمضان سنة ٧٩٨ هـ بمنزل العراقي بجزيرة الفيل على شاطئ
النيل كما قرأ عليه غير الألفية من كبار الكتب ، وقصار الأجزاء ، والكثير من
أماليه ، وعلى يدى العراقي تخرج ابن حجر ، ثم أذن له في التدريس سنة
٧٩٧ هـ ولقبه بالحافظ ، وعظمه وأشاد بذكره ، ثم اتصل أيضاً بالشيخ
نور الدين الهيتمي وكان الهيتمي وثيق الصلة بأستاذه وصديقه الحافظ
العراقي ، فهو كما يقول ابن حجر في الأنباء : « قد رحل معه جميع رحلاته
وحج معه جميع حجاته ، ولم يكن يفارقه حضراً ولا سفيراً ، وتزوج ابنته ،
وتخرج به في الحديث ، وقرأ عليه أكثر تصانيفه ، وكتب عنه جميع مجالس
أملائه » .

وهذه الصحبة الطويلة والملازمة التامة ، وتلك السنوات العشر التي
قضاها ابن حجر مع هذين العالمين ، كل ذلك كان خيراً ونفعاً له ، فقد
لازمهما وقرأ عليهما ، واستفاد بالكثير من علمهما .

وكان رحمه الله حين يذكر أستاذة العراقي يذكر معه الهيتمي فيقول :
« وقرأت عليه وعلى رفيقه الشيخ نور الدين الهيتمي مسند محمد بن يحيى
العدنى . . . وعليهما قرأت جزءاً ليس باليسير من حلية الأولياء
لأبى نعيم » .

وقد عاش الهيثمي بعد موت الزين العراقي عاماً أو ما يقرب من عام ، وظل ابن حجر على صلة بالهيثمي وانتفاعه بصحبته وملازمته له يتتلمذ على يديه ويأخذ عنه .

ومما قرأه عليه كذلك النصف من مجمع الزوائد والربع من زوائد مسند أحمد ، وكان الهيثمي يعطف عليه كثيراً وقد شهد له بالتقدم ورسوخ القدم في علم الحديث ، وغير العراقي والهيثمي كان أبو الفرج بن الشحنة المتوفى سنة ٧٩٩ هـ ، وقد اشتغل هذا العالم بالحديث واشتهر به ، وكانت بينه وبين نور الدين والد أحمد صاحبه قديمه ، وقد اجتمع ابن حجر بهذا الشيخ حين طلب الحديث فأكرمه وبالف في إكرامه وعلمه ، وعنى بشأنه .

ويحدثنا ابن حجر عن صلته بأبي الفرج في كتابه الانباء فيقول :

« وكانت بينه وبين أبي مودة وصاحبه فكان يزورنا بعد موت أبي وأنا صغير ثم اجتمعت معه لما طلبت الحديث فأكرمني ، وكان يديم الصبر لي على القراءة ، إلى أن أخذت عنه الكثير من مروياته . وقد تفرد في رواية المستخرج على صحيح مسلم لأبي نعيم ، قرأته عليه كله » .

ثم اتصل بابن أبي المجد على بن محمد المتوفى سنة ٨٠٠ هـ ، وعلى هذا الشيخ قرأ سنن ابن ماجه ومسند الشافعي وتاريخ أصبهان وغير ذلك . ومن بعده أخذ الحديث عن شهاب الدين أحمد بن عمر بن عبد الصمد البغدادى نزيل القاهرة - وكان قد سمع من الذهبي وداود بن العطار وغيرهم - فقرأ عليه سنن ابن ماجه بجامع عمرو بن العاص ، وجزءاً كبيراً من طبقات الحفاظ للذهبي ، وقدراً من تاريخ بغداد .

هكذا يبدو ابن حجر وقد أقبل على الحديث وأولاه كل عنايته وبذل في طلبه قصار جهده ، ويلمس الامام محب الدين الواحدى المالكي عناية ابن حجر واهتمامه بطلب الحديث ، فينصحه بالعناية بالفقه عنايته

بالحديث معللا ذلك بان الناس سيحتاجون اليه في هذا العلم ، فكان لهذا النصح أثره في حياته .

قال ابن حجر : « فقال لى : اصرف بعض هذه المهمة الى الفقه فانى أرى بطريق الفراسة أن علماء هذا البلد سينقرون وسيحتاج اليك ، فلا تقصر بنفسك ، فنفعتنى كلمته ، ولا أزال أترحم عليه لهذا السبب رحمه الله » .

فوجه همته الى الفقه وغيره من العلوم كالنحو وعلوم الأدب والمعانى والبيان حتى نبغ فيها وأجاد .

وكان أبرز شيوخه في علم الفقه برهان الدين الانباسى ، وقد اشتغل هذا الامام بالفقه والعربية والأصول والحديث ، وبنى له زاوية كانت مأوى للطلبة ، يقوم بايوأئهم ويسعى فى حوائجهم .

وقد اجتمع ابن حجر بهذا الامام منذ عهد مبكر ، ثم لازمه بعد التسعين كما ذكر ذلك فى معجم شيوخه .

فدرس عليه الفقه واللغة ، وصحبه كثيراً ولازمه طويلا ، وكانت له عند برهان الدين مكانة ومودة ، اذ كان من أصحاب أبيه .

ثم اتصل بشيخ الشيوخ - وقت ذاك - سراج الدين البلقينى فقرأ عليه « دلائل النبوة للبيهقى » ودروساً فى الروضة له ، والكثير من صحيح البخارى ، ومن صحيح مسلم وسنن أبى داود .

وكان البلقينى ممن أذن له فى الافتاء والتدريس أيضاً .

وكذلك أخذ ابن حجر عن التنوخى ابراهيم بن أحمد نزيل القاهرة « فلازمه أكثر من ثلاث سنين ، وقرأ عليه فيما قرأ ألفية ابن مالك وجميع سنن النسائى وموطأ مالك رواية يحيى بن يحيى الليثى عنه » .

كما اتصل بعز الدين بن جماعة ، وكان أجل من أخذ عنه المعقول
والأدبيات .

وما أقصد في هذا البحث أن أحيط بجميع شيوخه الذين أخذ عنهم
وسمع منهم ، ففي معجم شيوخه غنية لمن أراد مزيداً ، وحسبنا أن نشير
الى أن من شيوخه غير ما ذكرنا ، ناصر الدين بن الفرات الحنفى ، وشمس
الدين الغمارى ، وكان عارفاً بالفقه والعربية ، بارعاً فيها ، وأبا المعالى
الحلاوى ، وأبا الطاهر الربعى والمحب بن هشام والمجد الشيرازى
وابن الملكن .

رحلاته : ذكرنا فيما سبق أن الحافظ ابن حجر ارتحل مع زكى
الدين الخروبى الى مكة للحج سنة ٧٨٤ هـ ولم يكد يبلغ العشرين من عمره
حتى جد فى الطلب والسماع والأخذ عن أئمة عصره ، فطاف مدن مصر ،
وارتحل الى الشام واليمن والحجاز والتقى بعلماء المشرق العربى يأخذ عنهم
ويسمع منهم ، ونقل من كبار الكتاب الشئ الكثير .

ففى سنة ٧٩٣ هـ توجه الى قوص وغيرها من مدن الصعيد ، طلباً
المفقه والحديث ، ولكنه فى رحلته هذه لم يظفر بما كان يرجوه ، ولنستمع
اليه يحدثنا عن هذه الرحلة فيقول رضى الله عنه : « وفيها سافرت الى قوص
وغيرها من مدن الصعيد ، ولم أستفد منها شيئاً من المسموعات الحديثية
بل لقيت جماعة من أهلها منهم القاضى ناصر الدين وابن السراج قاضى
(قوص) وجماعة من أهل الأدب سمعنا من نظمهم » .

وفى أواخر سنة ٧٩٧ هـ ذهب الى الاسكندرية ، وكانت فى هذه الآونة
مركزاً من مراكز الثقافة الاسلامية تحفل بكبار العلماء وعظماء المفكرين
وجمعاً كبيراً من المسندين ، ومنهلاً عذباً لطلاب الحديث والفقه خاصة ، .

وقد التقى الحافظ بأبى عبد الله الشافعى ، وكان هذا العالم آخر من كان يروى بها حديث الحافظ السلفى بالسماع المتصل ، وكذلك سمع بها من التاج ابن الخراط وابن شافع الأديب وابن القيسى وناصر الدين بن الموفق وابن الجزرى وغير هؤلاء .

وبعد أن مكث بالأسكندرية عاماً وبعض الثانى عاد الى القاهرة .
وفى شوال من سنة ٧٩٩ هـ ارتحل الى أرض الحجاز بطريق البحر وفى سفره هذا ، رافق العلامة نجم الدين محمد بن أبى بكر المصرى وأبا بكر بن المعالى الرشيد .

وتوجه ابن حجر هو وصحبه الى بلاد اليمن فوصلوا اليها كما ذكر فى الأنباء فى حوادث سنة ٨١٧ هـ فى ربيع الآخر سنة ثمانمائة ، وهناك لقى كثيراً من الحفاظ والعلماء ، فرحوا بقدومه وسروا بوفادته ، وكان من هؤلاء شيخ اللغويين مجد الدين الفيروزابادى صاحب القاموس ، فاجتمع به فى زبيد وفى وادى الخطيب ، وناولوه معظم القاموس ، واذن له أن يرويه عنه .

وبعد أن أقام فى اليمن ما شاء الله له أن يقيم ، سار الى مكة ، وأدى فريضة الحج فى ذلك العام ، فلما رجع الى مصر فى سنة ٨٠١ هـ ارتحل الى الشام ، وكانت هذه الرحلة خصبة حقاً ، لقى فيها جمعاً من الفضلاء وسمع فيها الكثير من الحديث وغيره .

ودخل دمشق فنزل عند صاحبه الصدر على بن محمد الأدمى ، كما لقى هناك رفيقه الحافظ صلاح الدين الأقفهسى .

وفي دمشق اتصل بالعلامة شهاب الدين أحمد بن اسماعيل الحسباني وكان هذا الشيخ كما وصفه شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني ، أحفظ أهل دمشق للحديث ويبين ابن حجر في الانباء ما أفاده من لقاء هذا الشيخ فيقول : « وقد اجتمعت به بدمشق فأكرمنى وأعارنى كتبه وأجزاءه التي يضمن بها على غيره » .

واجتمع في دمشق أيضاً هو والعلامة بدر الدين محمد بن قوام البالسى ، فقرأ عليه « الموطأ » و « سنن الدارقطني » و « المعجم الأوسط » للطبرانى .

ثم تنقل في مواطن أخرى طلباً للحديث ، نذكر على سبيل المثال منها غزه والخليل وبيت المقدس ، ثم رحل عن دمشق الى القاهرة في سنة ٨٠٣ هـ ، وقد اتسعت روايته ، وزادت معارفه ، وظهرت فضائله لعلماء الشام .

هكذا يجوب الاقطار ، ويطوى الآفاق ، ويطوف في المدن طلباً للحديث والفقه وعلوم الدين ، لا يضعف له عزم ولا يعوقه عائق ، ولا يقعد به تقدم السن ، صبوراً على السفر ، قوى الاحتمال على مشقة السير .

يصفه تلميذه البقاعى في رحلة من رحلاته ، وكان الامام ابن حجر قد جاوز الثانية والستين ، فيقول : « لازمته حضراً وصحبته سفرأ فرايت منه الغرائب . كان الأتراك سنة ست وثلاثين (وثمانمائة) يتعجبون منه في قوة صبره على شدائد السير . يركب البغل مرة . والهجين أخرى ، ويسبق فينزل الى الكتابة والمطالعة ، حيث ينزل غيره الى النوم والراحة ولا يقطع قيام ثلث الليل الاخير ، مع جهد ذلك السفر العنيف » .

مصنفاته : تصدى ابن حجر للتصنيف والتأليف منذ عهد مبكر من حياته فى حدود سنة ست وتسعين ، فقد كان لا بد لهذه العقلية الراجحة ، وهذه الحافظة الواعية والبصيرة النافذة ، أن يظهر أثرها فى العلوم ، وأن تؤتى ثمارها فى عهد مبكر وعلى خير ما يرجى .

وقد أكثر من الكتابة والتأليف الفذة والتصانيف الجليلة ، حتى زادت هذه المؤلفات وتلك التصانيف على مائة وخمسين تصنيفاً فيما ذكره كثير من العلماء ، وكانت هذه المؤلفات بين حديث وفقه وأدب وتاريخ وغير ذلك ، حازت كلها القبول لدى محبى العلم وهواة المعرفة ، ولا سيما (فتح البارى بشرح البخارى) فقد طلبه الملوك والعظماء وبيع بنحو ثلثمائة دينار ، وأهتم بتحصيل كتبه الشيوخ والأقران وانتشرت أكثر مؤلفاته فى حياته وتتلذذ الكثير على هذه الكتب فى حياته وكان له مجلس يقرأ فيه الكتب على طلابه ومريديه ، وملاّت فتاواه الأفاق ، وكثر الآخذون عنه ، حتى كان رعوس العلماء من كل مذهب من تلامذته ، ونحن لانورد كل مصنفاته فى هذا البحث ، ومن أراد معرفة هذه المصنفات بتوسع فليقرأ « الجواهر والدرر » للسخاوى ، و « اليواقيت والدرر » لابن المنأوى و « ذيل طبقات الحفاظ » للسيوطى ، و « المنهل الصافى » لابن تغرى بردى و « كشف الظنون » لحاجى خليفة ، و « عنوان الزمان » للبقاعى .

وسوف نكتفى هنا بذكر طائفة من أشهرها فمن أشهر كتبه غير ما سبق ذكره : « الاتقان فى فضائل القرآن » و « بلوغ المرام بأدلة الاحكام » و « تبصير المتنبيه بتحرير المتنبيه » و « تصحيح الروضة » و « طبقات الحفاظ » و « لسان الميزان » و « الكاف الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف » و « هدى السارى ، وهى مقدمة فتح البارى » و « نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر » وأروع ما كتبه ابن حجر ، وأولاه بالتكريم كتابه « فتح البارى بشرح البخارى » وقبل أن يبدأ فيه كان قد صنف مقدمة له أسماها « هدى

السارى « سارت بها الركبان الى بلاد المشرق والمغرب وأشتهرت فى تلك
الأنحاء وأشتهار غيرها من كتبه .

وقد ابتداء شرح البخارى فى سنة ٨١٧ هـ كما يقول السخاوى : شرع
فيه وهو فى الخامسة والأربعين من عمره ، وهى سن النضج العقلى والاكتمال
الذهنى ، وأتمه فى أول يوم من رجب سنة ٨٤٢ هـ ، فاستغرق تأليفه خمسة
وعشرين عاماً كان رحمه الله قد بلغ السبعين من عمره .

وكان شرحه بادئ الأمر - كما قالوا - على طريق الاملاء ، ثم صار
يكتب من خطه بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، وكان يجلس يوماً من كل أسبوع
للبحث ومقابلة ما كان يكتبه ، فجاء الكتاب بخط مؤلفه فى اثنى عشر مجلداً
وقيل وثلاثة عشر مجلداً فى رواية أخرى .

وقد سلك المؤلف فى هذا الكتاب مسلكاً ونهجاً نهجاً لم يسبقه اليه أحد
من معاصريه ، يقول البقاعى رحمه الله : كان ابن حجر « يجمع طرق
الحديث فيشرح بعضها بعضاً ، ويبين ما فى كل طريق من صحة أو سقم
ومتن الالفاظ التى اختلف فيها رواه البخارى ، ثم يأخذ كلام الشارح أولاً
فأولاً الى عصره فيبين صواب المصيب ووهم الواهم ومن أين جاءه الغلط »
انتهى .

ولقد كان ابن حجر أديباً موهوباً وشاعراً متمكناً كما أشرنا الى ذلك
من قبل لذلك كان فى شرحه أشد حرصاً على حسن التعبير ووضوح العبارة
وحسن الاداء وفى خلال ذلك لا يغفل عن بيان الاعراب واللغة ، وذكر
أنواع البيان أو البديع .

وانتشر خبر تأليفه لفتح البارى فى المشرق والمغرب ، فتوجهت همم
العلماء والأمراء وكل راغب فى المعرفة الى طلبه .

وكان اشتهار مقدمته في الآفاق الاسلامية كما يقول السخاوى : « سبب
ترغيب ملوك الاطراف في تحصيله ٠٠٠٠ فصار من يعرف فصولها ينتشوف
الى الاصل » .

وبلغ من اشتهار الكتاب بالشرق والمغرب أن أرسل كثير من السلاطين
والأشراف في طلبه ، فكان ابن حجر يرسل اليهم ما انتهى اليه من تأليفه
من الكتاب ، الى أن أتمه فكان يرسل نسخاً كاملة الى كثير من هؤلاء .

وفي رجب أو شعبان من سنة ٨٤٢ هـ كمل فتح البارى وختم الكتاب .
وكان ختمه يوماً مشهوداً من محاسن الزمان ، فاقيم له حفل بديع
في مكان بناه المؤيد خارج القاهرة ، يعرف « بالتاج والسبع وجوه » .

وكان ذلك في يوم السبت الثامن من شعبان سنة ٨٤٢ هـ وأنفق فيه ابن
حجر أموالاً جزية بلغت فيما قالوا - خمسمائة دينار وشهد الحفل تلميذه
الناصر محمد بن السلطان جقمق ، كما شهد أركان الدولة والعلماء
والرؤساء وطلاب العلم ، وكان المصنف يجلس مع القارى على كرسى
وحوله أهل العلم والقضاة وأصحاب المنزلة ، كالقائيات والسفطى والمقريزى
ومن اليهم ، وحتى الذين هم من طبقة العامة ، قد أسرعوا لشهود هذا
الحفل ، وفي ذلك يقول البقاعى : « وخرج الباعة وأهل الاسواق رجالاً
ونساء للفرجة حتى أنى أظن أنه لم يتخلف في ذلك اليوم في القاهرة
كبير أحد » .

وقد توافرت في هذا الحفل دواعى المديح ، فتبارى الشعراء بقصائد
طنانة كل على حسب ما جادت به قريحته .

مناصبه : تولى ابن حجر منصب التدريس والاقراء في عدة مدارس

بالقاهرة .

وكان أول تدريسه للحديث في مسجد شيخون ثم درس الفقه بهذا المسجد كذلك سنة ٨١١ هـ ، ثم أملى الحديث بمدرسة الجمالية ، ثم قطع الاملاء سنة أربع عشرة .

وأول ما فتحت مدرسة المؤيدية الجديدة تولى فيها تدريس فقه الشافعية كان ذلك في الثالث من جمادى الأولى سنة ٧٢٢ هـ ، ثم عمل بمدرسة البيبرسيه في دولة المؤيد ، ومكث بها نحو عشرين عاماً يدرس مختلف العلوم الشرعية ، ثم انتقل الى دار الحديث الكاملية بين القصرين حين عزل من منصب القضاء ، وفيها التقى بالشيخ شمس الدين القاياتي سنة ٨٤٩ هـ ، كما قام بتدريس الفقه بالمدرسة الصلاحية المجاورة للامام الشافعي في يوم الاثنين الثاني عشر من رجب سنة ٨٤٦ هـ ، ومن قبل تولى الخطابة بالجامع الأزهر عوضاً عن التاج محمد بن رزين المتوفى سنة ٨١٩ هـ برغبة منه لابن حجر .

وبين التدريس والتصنيف والافتاء ، تولى منصب القضاء فكان قاضي الشافعية الأكبر ، وقاضى القضاء بمصر أكثر من اثنين وعشرين عاماً .

القاضي ابن حجر

ومن غير ابن حجر أحق بولاية القضاء ، وهو الحافظ الذي اشتهر ذكره ، والعالم الذي بعد صيته ؟

وقد امتنع من تولى هذا المنصب حين عرض عليه القاضي صدر المناوى أن يقوم بالقضاء نيابة عنه .

وكان الملك المؤيد كثير الاقبال عليه وافر الثقة به ، ولنستمع الى ابن حجر يقول في الانباء : « وفي رجب سنة ٨١٩ هـ غضب السلطان على

نجم الدين بن حجر إسماعية الشريف شهاب الدين بن نهتبه عليه ،
وكانت بينهما منازعة أفضت الى العداوة الشديدة ، واستمر غضب السلطان
عليه وعرض منصب القضاء على كاتبه (ابن حجر) فامتنع وأصر على
الامتناع ، فراوده على ذلك ورغبه فيه ، حتى صرح بأن للقاضي بدمشق في
الشهر عشرة آلاف درهم فضة » .

وعلى الرغم من هذا ، فإن ابن حجر لم يتوجه اليها ، ولم يرسل
عنه من يقوم بالنيابة فيها .

ولكن حدث بعد هذا ، أن كانت بينه وبين قاضي القضاة جلال الدين
البلقيني صداقة وصحبة وود متصل ، وما لبث البلقيني أن طلب الى
ابن حجر أن ينوب عنه في القضاء وما زال به حتى قبل ، فلما توفي جلال
الدين وتولى بعده القاضي ولى الدين العراقي التمس منه النيابة عنه في
القضاء ، كما ناب من قبل مع جلال الدين ، وأستجاب لرجائه ورضى
النيابة عنه على أن ابن حجر لم يلبث أن عرض عليه القضاء استقلالاً
لا نيابة .

ففي السابع والعشرين من المحرم سنة ٨٢٧ هـ ، ولاه الأشرف برسباي
قضاء قضاة الشافعية بالديار المصرية عوضاً عن القاضي علم الدين صالح
البلقيني ، وعمل له في ذلك تقليد بديع ، وظل ابن حجر يباشر القضاء زمناً

ويبدو أن ابن حجر كما يقول السخاوي : « قد ندم على قبول وظيفة
القضاء لان الامراء والرؤساء في عصره ما كانوا يفرقون بين أولى الفضل
وغيرهم ، وكانوا يغضبون ويشتد لومهم حين لا يقبل رأيهم وان لم يكن
موافقاً للحق ، واحتياج القاضي بسببه الى مداراة الكبير والصغير بحيث
لا يمكن مع ذلك القيام بكل ما يرون على وجه العدل » .

وفي الثامن من ذى القعدة من تلك السنة ، صرف عن القضاء بشمس الدين الهروى ويبدو أن هذا القاضى لم يكن بالمحمود فى ولايته ، فعزل فى الثانى من رجب سنة ٨٢٨ هـ وتقرر ابن حجر فى القضاء .

وكان هذا اليوم كما يقول قاضى الحنابلة محب الدين البغدادى : -
« يوماً مشهوداً وحصل للناس سروران عظيمان ، أحدهما بولايته لان محبته مغروسة فى قلوب الناس ، والثانى بعزل الهروى ، فان القلوب كانت اتفقت على بغضه لاساعته فى ولايته » .

ولم يمكث الهروى بمصر فسرعان ما خرج هارباً ممن له عليه ظلامة ، فما ظهر خبره الا فى بيت المقدس .

وظل ابن حجر يتولى القضاء أعواما الى أن صرف بالقاضى علم الدين البلقينى فى صفر سنة ٨٣٣ هـ .

وفى السادس والعشرين من جمادى الاولى سنة ٨٣٤ هـ الى أن صرف بعلم الدين المذكور .

وفى صرف ابن حجر فى هذه المرة ، يصرح بأن ذلك انما كان بسعى القاضى علم الدين للقضاء ووساطة بعض من تحدث له بشأنه .

فيقول فى حوادث سنة ٨٤٠ هـ فى الانباء : « وفى أول شوال جدد الساعى للقاضى علم الدين السؤال ٠٠٠ فلما كان يوم الخميس الخامس من شوال صرف كاتبه (ابن حجر) واستمر القاضى علم الدين البلقينى » .
وظل ابن حجر مبعداً عن القضاء عاما كاملا ، فلما كان السادس من شوال سنة ٨٤١ هـ استقر فى الحكم بالديار المصرية .

وفى التاسع من شهر ربيع الآخر من عام ٨٤٢ هـ جرى كلام يتعلق ببعض القضاة بعد قراءة تقليد الظاهر جقمق ، فقال ابن حجر : عزلت نفسى فقال السلطان : أعدتك .

فلم يجد بداً من القبول ، وخلع عليه السلطان وعلى رفقته ، وأضاف
اليه - كما يقول ابن فهد - ما خرج في الايام الأشرفية من نظراًلأوقاف .

وفي المحرم من سنة ٨٤٤ هـ ، عين السلطان الشيخ شمس الدين الونائى
للقضاء بعد أن أرسل الى ابن حجر ألا يخطب به يوم الجمعة الموافق أول
يوم من صفر ، فخطب به أحد نواب الحكم وهو القاضى برهان الدين
بن المبلق ، ولكن ابن حجر ما لبث أن أعيد بسعى تلميذه محمد بن السلطان
حقمق ، ولم يتم الأمر للونائى ، فقرر ابن حجر فى يوم الاثنين السادس
عشر من الشهر المذكور .

واستمر ابن حجر فى القضاء الى أن عزل يوم الاثنين الخامس عشر من
ذى القعدة من سنة ٨٤٦ هـ ، ولكنه لم يلبث أن أعيد بعد أن صمم على
عدم القبول .

ثم حدثت أحداث متكررة حقد فيها الحاقدون على ابن حجر فكان
يولى حين تعرف الحقيقة ثم يعزل حين ينجح الوشاة ، وما زال اعداؤه
يلاحقونه ويكيّدون له ويتأمرون على خلعه ، حتى عزم على ترك المنصب
فكان أن عزل نفسه فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٨٥٠ هـ ،
وكانت هذه آخر ولايته للقضاء بعد أن باشر هذا المنصب أكثر من اثنين
وعشرين عاماً .

بقى علينا فى هذا البحث الموجز والتعريف اليسير بابن حجر أن
نستكمل صورة هذا العالم الجليل فنعرف شيئاً من أوصافه وخلقه وتقضى
أوقاته ونظام حياته ، فقد كان هذا الامام ملء الآفاق الاسلامية بعلمه
وفضله وجليل آثاره ، كما كان ملء قلوب سامعيه وطلابه ومريديه ، وقد
حفظ التاريخ كثيراً من أوصافه وشمائله ، وتقدير الناس له والثناء عليه ،
ومن أظهر من عنى بهذه الناحية ابن تغرى بردى والسخاوى والبقاعى .

يقول ابن تغرى بردى فى « المنهل الصافى » : « وكان - عفا الله عنه -
ذا شىبة نيرة ووقار وأبهة ومهابة ، هذا الى ما احتوى عليه من العقل
والحلم والسكون والسياسة ، والدربة بالأحكام ، ومداراة الناس ، قل أن
يخاطب الشخص بما يكره ، بل كان يحسن لمن يسئ اليه ، ويتجاوز عمن
قدر عليه » .

وقول السخاوى : « وأما شىء من أوصافه فكان - رحمه الله - فوق
الربعة ، أبيض اللون ، منور الصورة ، كث اللحية ، مليح الشكل ،
صحيح السمع والبصر ، ثابت الأسنان نقيها صغير الفم ، قوى البنية ،
عالى المهمة ، خفيف المشية ، ولو عند اقباله على الملوك ، خفيف الوضوء
فى تمام سريع عقد النية ، بل يعيب على من يتردد فيها ، وكذا من يبالغ
فى اخراج الحروف بتقطيع الكلمة ، لا يتأنق فى مأكله ومشربه ، ولا فى آنيته
ويأكل اليسير من الغداء ، لكن كان يتقوت بالسكر ، ويميل الى قصب السكر
ميلا قويا ، ويكثر البقل ، لا يزال بجانبه عليه فيها شىء كثير منه ، وكان
لا يتأنق فى ألفاظه ، بل يعيب على من تقعر فى كلامه » .

وكان البقاعى أتم تصويراً ، وأكمل وصفاً لصورة استاذہ ، فى غزارة
علمه وقوة خلقه وجمال مجلسه وتوفيقه فى أحكامه وآرائه فيقول : -
« وكان حسن الشكل ، جميل الوجه ، منور الشىبة من كثرة صلاته بالليل ،
حسن وجهه بالنهار ، كثير الوقار ، قليل الكلام ، منافعه بديعه ، شديد
الاتباع للسنة فى النية والطهارة والملبس وغير ذلك ، حلو الشمائل ، بديع
القول ، ظريف النادرة جداً ، مجلسه كأنه البستان فيه من جميع ما يشتهى
الانسان ، العلم والاخبار الحسان ، والنوادر اللطاف ، وأحوال الناس فى
كل زمان ، من غير خروج فى ذلك عن السنة ، اذا رأى فى بعض جلسائه
ما يسوءه ، قطع المجلس وقام الى الصلاة أو دخل الى البيت ونحو ذلك ،

قل أن يواجه أحداً بما يكره ، يؤدب بأحواله ، ويهذب بأقواله ، يكرم جليسه غاية الأكرام مع الاقتصاد في المدح والذم وتنزيل الناس منازلهم ، له الخبرة التامة بذلك .

من معرفة أحوال الدهر وأخبار أبنائه . فاق أهل زمانه في كل ما يكون المدح نسبة العقل الوافر والاحتمال العظيم والشفقة على عباد الله ، والرحمة لهم ، على شدة اليقظة والحزم وسرعة الكتابة والكشف والفهم ، وقوة الحافظة ، وصحة الجسم وبسط البنان ، فهو عجب من العجب كرمه منوال . على سائر الأنام ، وكر الليال ولم ير في أزماننا أكرم منه . » .

ثم يصفه البقاعى كقاضى فيقول : « وهو مع الحلم الزائد ، والتغافل عن الهفوات ، في غاية اليقظة والتثبت والحدس الصائب ، والنظر الثاقب بديع الأفعال في أحكامه وقضائه وجميع أحواله ، لا يستطيع أحد أن يغيره في شيء أصلاً أو أن يقرب من ذلك . لا يقبل كلام أحد في غيبة خصمه ، فهو آية في حسن القضاء ومعرفة دسائس الناس في كلامهم ، والاهتداء الى قطع الأمور . له في المناظرة مسلك غريب ، قل أن يثبت في ذلك أحد ، بلغنى أن علامة العصر قاضى القضاة شمس الدين البسطامى كان يقول : « حيرنا هذا الرجل ، لا نسرع في ذكر شيء من العلوم أفنينا العمر فيه ، الا فهم المراد قبل تكميل الكلام ، ثم يبتدىء فيه بعبارة أخرى بحيث يظن السامع أن المعنى غير المعنى أو يتم القول في ذلك بأرشق كلام . وبلغنى أن الشيخ علاء الدين الرومى سئل في بلاد الروم عن شيخنا فقال : هو رجل اذا أردت أن تحتج عليه بحجة مبنية على عشرين مقدمة ، ثم شرعت في ذكر المقدمة الأولى فهم جميع تلك المقدمات وتلك الحجة وشرع في الجواب عن ذلك » .

هذا هو الحافظ بن حجر نقدمه لطلاب البحث مثلاً أعلى في الكفاح والدرس والتحصيل ليكون نبزاً يضيء لهم الطريق ويهديهم سواء السبيل .

وبالله التوفيق